

يهود فلسطين وأرض الشتات

د. محمد عبد العزيز ربيع

يقول المؤرخ الإسرائيلي والأستاذ الجامعي الدكتور شلومو ساند أن الديانة اليهودية كانت في الماضي ديانة تبشيرية، ولذا قامت بالانتشار في العديد من البلاد المجاورة لفلسطين في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وأن نشاطاتها اتجهت بعد انتصار الديانة المسيحية في القرن الرابع الميلادي إلى التوسع في البلاد التي اعتنقت شعوبها ديانات وثنية مثل اليمن وشمال افريقية، ومن هناك وصلت اليهودية إلى اسبانيا. لقد كانت نقطة البداية بالنسبة للدكتور ساند هي توجيه سؤال لنفسه عن أصول الجالية اليهودية الكبيرة التي ظهرت في اسبانيا أثناء خضوع تلك البلاد لحكم المسلمين. وهنا اكتشف ساند كما يقول، أن طارق بن زياد الذي قاد جيوش المسلمين وقام بفتح الأندلس كان بربريا، وأن معظم جنوده الذين حاربوا معه كانوا من البربر أيضا، وأنه كان من بينهم أعداد كبيرة من اليهود.

أما فيما يتعلق بكيفية تحول أولئك البربر إلى اليهودية، فيقول المؤرخ الإسرائيلي أن بعض القبائل البربرية التي سكنت شمال افريقية، أو منطقة المغرب العربي كانت قد اعتنقت اليهودية في القرن السادس الميلادي، وأن هناك العديد من المراجع المسيحية التي تقول بأن الكثير من القوات التي حاربت الاسبانيين وهزمتهم كانت قوات بربرية اعتنقت اليهودية. وهنا يعود الكاتب ثانياً إلى مراجع تاريخية قديمة ليقول بأنه كانت هناك ملكة بربرية اسمها داهية الكاهنة ظهرت في القرن الثامن الميلادي وقامت بتوحيد عدة قبائل بربرية يهودية في مملكة واحدة، وأنها قامت بمقاومة جيوش المسلمين الغازية. إلا تلك الملكة مُنيت بالهزيمة، وتم القضاء على مملكتها قبل قيام طارق بن زياد بحملته لفتح الأندلس ب 15 سنة فقط. ويبدو واضحا لمن يتأمل اسم الملكة البربرية كما جاء ذكره، أن الاسم على ما يبدو كان لقباً أطلقه العرب عليها لذكائها وجبروتها، ومعناه الكاهنة الداهية. وهذا يفسر قضية محيرة تتعلق بتراث العرب الحضاري في الأندلس، تعود لقيام العرب بمعاملة اليهود في اسبانيا معاملة حسنة للغاية، وسبب استخدام اليهود أسماء عربية وقيام من اشتهر منهم في اسبانيا أثناء الحكم العربي باستخدام اللغة العربية في كتاباتهم الفلسفية وبحوثهم العلمية. فالانتساب لقبيلة واحدة كان يحتم ولا يزال يحتم التعصب لأولاد العمومة، ويقود إلى وحدة الانتماء واللغة وتشابه الأسماء، حتى وإن اختلفت المعتقدات والطقوس الدينية.

أما يهود اليمن فهم بقايا مملكة حمير التي اعتنقت اليهودية في القرن الرابع الميلادي. إلا أن أهم وأكبر إضافة لأعداد اليهود عبر التاريخ جاءت، كما تقول دراسات ساند واستنتاجاته العلمية، نتيجة لقيام مملكة الخزر باعتماد اليهودية في القرن الثامن الميلادي، واتخاذ العبرية لغة مكتوبة لها. ولقد سيطرت مملكة الخزر في حينه على عدة شعوب ومناطق جغرافية امتدت من جورجيا إلى أوكرانيا، إلا أن قوتها أخذت في التراجع مع بداية القرن العاشر، وأن جيوش المغول قامت باجتياحها في القرن الثالث عشر وتدميرها، مما تسبب في اختفاء اليهود وتفرقهم، حيث لم يعد يعرف مصيرهم. وهذا يؤكد ما توصل إليه العديد من المؤرخين في القرنين التاسع عشر والعشرين من أن يهود الخزر هم أصل اليهود الذين ظهروا بأعداد كبيرة في مختلف دول أوروبا الشرقية، ومنها بولندا التي ظهر فيها في أوائل القرن الماضي حوالي 3 ملايين يهودي. ويعزز ساند استنتاجاته هذه بالقول بأن بن زيون دينور (Ben Zion Dinur) الذي يوصف بكونه أب عملية التاريخ الإسرائيلية، لم يتردد في وصف مملكة الخزر بأنها "أم الشتات" اليهودي في أوروبا الشرقية.

هناك قصة طريفة لا أدري مدى صحتها، قرأتها قبل أعوام في أحد الكتب، تقول أن ملك الخزر أراد لشعبه اعتناق دين واحد بعد انتشار المسيحية ووصول اليهودية والإسلام إلى مشارف مملكته. ولذا أرسل مبعوثين لإجراء اتصالات بالديانات السماوية الثلاثة. ولقد سأل ممثلوه، كما تقول الرواية، المسلمين عن يؤمنون به من الرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد، فقالوا بأنهم يؤمنون بجميع الرسل بما في ذلك محمد وعيسى وموسى، لكنهم يتبعون سنة محمد. أما المسيحيون، فقد قالوا بأنهم يؤمنون بعيسى وموسى ولا يؤمنون بمحمد، وأنهم يتبعون سنة عيسى. وقال اليهود حين سئلوا نفس السؤال أنهم يؤمنون بموسى ويتبعون سنته، ولا يؤمنون بعيسى أو بمحمد. وفي ضوء تلك المعلومات، قرر ملك الخزر اعتناق الديانة اليهودية لأن موسى كان الرسول الوحيد الذي اجمع عليه أتباع الديانات الثلاثة.

وبجيب الدكتور ساند على سؤال يتعلق بمدى خطورة فكرة أصول اليهود الخزرية على كيان إسرائيل مشيراً إلى إن الاعتراف بهذه الحقيقة يعني تفويض ادعاء اليهود بأن لهم "حق تاريخي في الأرض". إن الكشف عن أن اليهود ليسوا من فلسطين "يسحب البساط من تحت أقدامنا منذ بداية مرحلة تصفية الاستعمار لم يعد بإمكان المستوطنين القول: إننا جننا، وربحنا الحرب، وإننا هنا، وذلك كما فعل الأمريكيون والبيض في جنوب أفريقية والاستراليون". .. إنني لا اشعر بالخوف من أن تلك الحقيقة من شأنها تفويض وجودنا، لأنني أعتقد أن سلوك دولة إسرائيل يعمل على تدمير ذلك الوجود بشكل أكثر خطورة.. من وجهة نظر الصهيونية، لا تعود هذه البلاد لمواطنيها، بل لليهود. إنني اعترف بتعريف واحد للشعب: مجموعة من الناس يرغب أعضاؤها العيش معا بشكل مستقل ذا سيادة. لكن معظم يهود العالم لا يرغبون العيش في دولة إسرائيل، على الرغم من عدم وجود عوائق تمنعهم. ولهذا فإن اليهود لا يشكلون شعباً أو أمة بذاتها.. إذا لم تتطور إسرائيل في اتجاه بناء مجتمع مفتوح متعدد الثقافات، فإننا سوف نواجه كوسوفو في الجليل.. إن علينا أن نبذل جهوداً كبيرة لتطوير هذا المكان إلى جمهورية إسرائيلية، حيث الأساس العرقي والدين لا يعينان شيئاً أمام القانون".

بناء على ما تقدم يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1. أنه ما دامت حكاية طرد اليهود من فلسطين على يد الرومان أكذوبة، فإن حادثة الشتات هي أكذوبة أيضاً.
2. ما دام أن الأصول العرقية لليهود أوروبا واليمن والمغرب وغيرها لا تعود إلى الفلاحين اليهود الذين سكنوا في فلسطين في العهود القديمة، فإن اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين كانوا جزءاً من الحركة الاستعمارية الاستيطانية الأوروبية وامتداداً طبيعياً لها.
3. إن الاعتراف بأن غالبية أهل فلسطين من مسلمين ومسيحيين تعود جذور غالبيتهم إلى الفلاحين اليهود الذين عاشوا في تلك البلاد في قديم الزمان، يعني أن الوعد الإلهي الذي جاء ذكره في التوراة، وبالتالي الحق التاريخي في أرض فلسطين، لا يعود لليهود العالم، بل لعرب فلسطين دون غيرهم.

إن هذه الاستنتاجات المؤسسة على حقائق تاريخية وتحليل علمي مستفيض لكتب قديمة تستوجب تبني استراتيجية عربية نضالية وإعلامية تقوم على النقاط الرئيسية التالية:

- انطلاقاً من التوراة واستناداً لكتب التاريخ القديمة، يعود الحق التاريخي والإلهي في فلسطين لعربها.
- أن الوجود اليهودي الحالي في فلسطين هو وجود استعماري استيطاني، مما يستوجب التعامل معه على هذا الأساس، والعمل على استئصاله بالتعاون مع كافة قوى التحرر في العالم، ومطالبة تلك القوى بالنظر لإسرائيل ويهود فلسطين والتعامل معهم من هذه الزاوية.

- أن الشتات بالنسبة لليهود تم على أيدي الأوروبيين، بدءا من اسبانيا وعبر بوليدة وروسيا وانهاء بالنازية في ألمانيا، وذلك بسبب ما ارتكبته شعوب وحكومات تلك الدول من جرائم بحق مواطنيها من اليهود، وأن الشتات تواصل واتسع نطاقه بسبب قيام الحركة الصهيونية، مستخدمة أساليب الضغط والترهيب والترغيب، بجر أعداد كبيرة من يهود العالم للهجرة إلى فلسطين واستعمار أرضها.
- أن أرض الشتات الوحيدة التي يعيش فيها اليهود، هي أرض فلسطين، وأن من حقهم العودة إلى أوطانهم الأصلية في أوروبا وغيرها من بلاد عربية وغير عربية، وأنا نساندهم في هذا الحق.
- أن على الفلسطينيين العودة إلى مشروعهم الإنساني الذي يقوم على إقامة دولة ديمقراطية علمانية على أرض فلسطين التاريخية، يتعايش فيها اليهود والعرب على قدم المساواة، واعتبار ذلك أساسا للسلام وشرطا لاستمرار العملية السياسية، والتوجه في الوقت ذاته للنضال السلمي ذا البعد العالمي.

وهنا أتوجه ببناء لكل المؤسسات العربية المعنية بقضايا العلم والمعرفة والقضايا القومية بالحصول على حق ترجمة كتاب الدكتور شلومو ساند إلى لغات العالم الرئيسية، وفي مقدمتها اللغة الانجليزية والفرنسية والاسبانية والعربية والألمانية. إن ترجمة هذا الكتاب وإيصال ما فيه من حقائق تاريخية تتعلق بوطننا ومستقبل أحفادنا لكل شعوب العالم، هي مسؤولية أخلاقية وسياسية لا يمكن ولا يجوز التهرب منها.

د. محمد عبد العزيز ربيع
www.yazour.com